كيف نفهم التوحيد

تأليف

محمد أحمد باشميل

١٤١٢ هـ

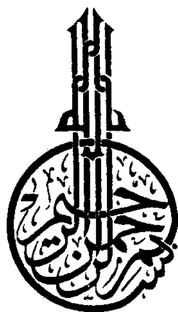
محمد أحمد باشميل
المملكة العربية السعودية
جدة - ص. ب ١٥٣٥

الطبعة الاولى
١٤٠٥هـ

الطبعة الثانية
١٤٠٨هـ

الطبعة الثالثة
١٤١٢ هـ

الطبعة الرابعة
١٤١٥هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمٰن الرحيم

تقديـــــم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد: فإن الله تعالى لم يخلق الخلق ولم يرسل الرسل إلا ليعبدوه وحده قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

ومن المؤسف المبكي أن عامة المسلمين من الجهال لايعرفون المعنى الحقيقي للعبادة فيتوجهون بها إلى غير الله تعالى ـ جهلاً ـ فيقعون في الشرك الأكبر المخرج من الملة.

وذلك حين يتوجهون في خشية وخضوع إلى المقبورين من الأنبياء والأولياء والصالحين بالدعاء

(١) الذاريات : آية ٥٦.

والاستغاثة والذبح والنذور و يطوفون بالقبور والتوابيت تعظيماً كما يطوفون بالكعبة المشرفة، وهذه هي العبادة وإن أسموه تبركاً وتوسلاً.

وإذا كان الجهلة من العامة يرتكبون هذا الشرك عن جهل وعدم إدراك وفهم لمفهوم العبادة فإن هؤلاء قد يكون لهم بعض العذر لجهلهم.

ولكن ماعذر العلماء الكبار الذين يعرفون المعنى الحقيقي للعبادة، و يعلمون في قرارة أنفسهم أن ماانغمس فيه العامة هو شرك أكبر مخرج من الملة، و يصدرون الفتاوى بأن مايرتكبون من الشرك القولي والفعلي والاعتقادي هو توسل مطلوب وتعبير عن محبة الأنبياء والأولياء والصالحين؟؟.

ثم إنهم هم ــ لتعميق الشرك في قلوب العامة الذين يتخذونهم قدوة ــ يأتون الأعمال الشركية في الموالد والحوليات المبتدعة وغيرها.

ألا يتقي الله هؤلاء العلماء الذين يكتمون الحق و يشجعون على الكفر؟.

أمن أجل دريهمات بخسة أو جاه زائل يرتكبون هذه الجرائر في حق أنفسهم وفي حق العامة؟.

إن هذا النوع من العلماء هم الضالون المضلون.

وبعد أيها القارىء الكريم :

فإنني لما كنت ممن يعلم هذه الحقائق المروعة المتمثلة في تفشي الشرك الأكبر بشكل مخيف في مختلف أنحاء العالم الإسلامي. فإني استخرت الله تعالى واتكلت عليه فأصدرت هذه الرسالة بعنوان: (**كيف نفهم التوحيد**)... راجياً من الله تعالى أن يتقبلها مني...

وأن ينفع بها عباده الذين ضلوا عن علم أو عن غير علم.

إنها مني محاولة متواضعة لإخراج من ير يد الله تعالى إخراجه من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد إنه نعم المولى ونعم النصير.

ستنقض عرىٰ الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية

« عمر بن الخطاب »

كان على جانب كبير من التديُّن، ومع وداعته ودماثة خلقه كان صريحاً إلى أبعد الحدود.

وكنت معه دائماً على وفاق تام، لم نختلف إلا في ناحية واحدة، هي ناحية التوسل بالأموات ودعائهم والاستغاثة بهم من دون الله والذبح والنذر لهم.

فقد كانت هذه الأمور مثار جدل بيني وبينه، وكان يبدو لي من حديثه أنه ـ كغيره ـ يرى أن كل ذلك جائز ـ على الأقل ـ إذا لم يكن مستحباً.

وذات يوم، قال لي: أنت تعلم أنني لم أدْعُ أحداً غير الله ولم أتوسل إلى الله تعالى بغير عملي.

فقلت له: أعلم هذا وهو الذي يجعلني أطمع فيك وأتوسم فيك الخير، لأن عاقلاً مثلك يجب أن لا تغيب عنه مفاسد مثل هذه الحماقات التي يرتكبها المغفلون من ضحايا سدنة القبور وتجار الأضرحة.

هل دعاء الأولياء من دون الله كفر ؟

قال : ولكنني مع هذا ــ كما قلت لك أكثر من مرة ــ لم أهضم ولم أستسغ ــ إلى الآن ــ أن دعاء الأموات والاستغاثة بهم ــ وخاصة الأولياء والأنبياء والصالحين ــ شرك مخرج من الملة، مادام أن المستغيثين والمتوسلين لايعتقدون فيهم القدرة على الضر والنفع والخلق والإيجاد والإحياء والإماتة وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله.

ولطالما دار النقاش بيني وبينه، إلا أنه غالباً مايكون نقاشاً قصيراً غير عميق بحيث لم يستطع أحدنا إقناع الآخر.

قال لي مرة : هل لك أن نضع الموضوع على بساط البحث، وبكل صراحة نتناوله من جميع نواحيه، بشرط أن نحزم عواطفنا وندعها جانباً؛ لأن الناس لا يضلون السبيل إلا حيث تتحكم فيهم العاطفة ويتمكن من قيادهم الهوىٰ؟!.

فقلت له : هذه والله هي اللحظة التي طالما تمنيتها؛ لأنني حريص على أن أكشف لك غوامض ومعميات، هي السبب فيما أنت فيه من حيرة وتردد، ولذا تجدني سعيداً بالتعمق معك في بحث هذا الموضوع.

قال : عظيم جداً .. وأردف قائلاً :

ماهو موقفكم بالضبط من هذه المسألة؟ وماهي الأدلة القطعية التي تستندون إليها في تكفير الذين يسلكون ذلك الطريق ــ طريق دعاء الأموات والاستغاثة بالأنبياء والصالحين والذبح والنذر لهم ــ وتحكمون عليهم بالخروج من الملة؟؟

فقلت له : موقفنا من هذه المسألة هو تبع لموقف القرآن الكريم، وحكمنا هذا ليس رأياً رأيناه وليست نظرية ابتدعناها، وإنما هو امتداد لحكم هذا الكتاب الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فالقرآن الكريم ــ لانحن ــ هو الذي حكم على هؤلاء القبوريين بالكفر وأدانهم بالشرك.

فقال لي ــ في هدوئه المعروف ــ: لاداعي لتكرار هذا القول المجمل، فأنا أعرفه عنكم، وهو لا يزال في نظري مجرد دعوى، والدعوى بدون دليل لا تقبل، فما هو الدليل المفصل المقنع؟! إن الموضوع أكبر وأخطر من إرسال الكلام على عواهنه، فأنتم بإقدامكم على تكفير المسلمين بمثل هذه السرعة واللامبالاة: قد أحدثتم فتنة عمياء بين المسلمين لايزالون يخبُّون في غمارها حتى الآن.

تمويه القبوريين :

فقلت له : أنتم لا تزالون واقعين تحت تأثير دعايات مضللة كبيرة، فهي التي سدت عليكم منافذ التفكير وجعلتكم تعتقدون فينا ما تعتقدون وتظنون بنا ماتظنون.

وعلى العموم فأنتم أحرار، ولكم أن تسموا ماقمنا ونقوم به فتنة، أو تهوراً أو تسرعاً، أو أي شيء آخر يحلو لكم.

غير أن هذا كله لا يغير من الحقيقة المشرقة شيئاً، وهي أننا قوم نظرنا في كتاب الله تعالى وتدبرناه كما أمرنا الله أن نتدبر.

فأبصرنا وصفاً وصف الله به المشركين الأولين، ينطبق (تماماً) على هؤلاء القبوريين الذين يدعون الأموات ويستغيثون بهم ويتضرعون إليهم، ويشركونهم مع الله في النسك والنذر، فلم نتردد في

التنبيه والتبيين، ولم نتهيب أحداً عندما أعلنا ماوصل إليه علمنا، فقلناها صريحة، ورمينا بها بين أكتاف المكابرين، ولا يهمنا رضي الناس عنا أم غضبوا علينا.

فما كان رضى الناس – في يوم من الأيام – مقياساً للحق ولا غضبهم معياراً للباطل.

شبه المشركين والقبوريين ونقضها :

أما الدليل على مانقوله وندين الله به – في هذه الناحية – فعليك أن تصغي إليه في التفصيلات الآتية:

أولاً : أنتم ترون أن دعاء الأموات والاستغاثة بهم والتقرب إليهم بالذبح والنذر ليكونوا شفعاء، ووسطاء إلى الله، كل ذلك ترون أنه ليس من الشرك ولا من الكفر، مادام أن القائمين به يؤمنون بالله رباً وأنه لا خالق ولا رازق ولا محيي ولا مميت إلا هو سبحانه وتعالى، ويعتقدون أن من يدعون

من دونه لايملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً.

ولكن الواقع يثبت أن هذه النظرية هي نظرية خاطئة، والتحليل هذا تحليل فاسد يناقض أصول الإسلام مناقضة تامة، وسيتضح لك ذلك جلياً فيمايلي إن شاء الله.

حقيقة الصراع بين الأنبياء والمشركين :

فالمتتبع للصراع الذي كان ناشباً بين الأنبياء وخاصة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبين المشركين الأوّلين، يجد أن سببه ومداره ليس إنكار أولئك المشركين لوجود الله سبحانه وتعالى وعدم إيمانهم به.

وليس مبعثه عدم تسليمهم بأنه جل وعلا بيده ملكوت كل شيء، وليس مثاره اعتقاد أولئك المشركين أن من يدعون من دون الله يشاركون الله في جلب نفع أو دفع ضر، فكل شيء من ذلك لم يخطر على بال أحد من أولئك المشركين ولم يعتقد أحد منهم شيئاً منه البتة.

إيمان المشركين بالله :

فقد كان هؤلاء المشركون يؤمنون بوجود الله إيماناً جازماً و يوحدونه في الربوبية توحيداً كاملاً لا تشوبه أية شائبة، أي أنهم كانوا يعتقدون أنه تعالى ربهم ورب كل شيء وأن من يدعونهم من دونه من الآلهة والأنبياء ليسوا إلا بعضاً من عبيده وخلقه الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، وأن الضر والنفع والموت والحياة بيده وحده سبحانه وتعالى لا يشاركه في ذلك ولا يظاهره أي مخلوق من مخلوقاته.

هكذا كان إيمان المشركين الأولين بربهم، وهكذا كانوا يوحدونه في الربوبية هذا التوحيد الخالص الذي يقصر دونه اليوم توحيد القبوريين من عباد الأولياء الذين لا يلجأون إلى أوليائهم من الميتين سكان الأضرحة مستغيثين ومستنجدين بهم وضارعين إليهم إلا عند الشدائد،عكس ما كان يفعله المشركون الأولون الذين لا يدعون آلهتهم من الأولياء

المتمثلين في تماثيلهم وأنصابهم إلا حيث لايكون ضيق ولا شدة، أما في الضيق والشدة فهم لا يلجأون إلا إلى الله وحده لاشريك له، وهنا ثارت ثائرة صاحبي وقال في احتجاج ظاهر عجيب وغريب وكيف، كيف؟!

توحيد أبي جهل وأبي لهب :

أبو جهل وأبو لهب ومن على دينهم من المشركين، كانوا يؤمنون بالله و يوحدونه في الربوبية خالقاً ورازقاً، محيياً ومميتاً، ضاراً ونافعاً، لايشركون به في ذلك شيئاً!.

عجيب وغريب أن يكون أبو جهل وأبولهب أكثر توحيداً لله وأخلص إيماناً به، من المسلمين الذين يتوسلون بالأولياء والصالحين و يستشفعون بهم إلى الله!! أبو جهل وأبو لهب أكثر توحيداً وأخلص إيماناً من هؤلاء المسلمين الذين يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله! ماهذا يارجل، كيف تجرؤون على

التصريح بمثل هذا الكلام الخطير، الذي هو وأمثاله مما تغالون فيه هو الذي جعلكم أعداء للملايين من المسلمين في العالم؟

فقلت له : ليس هذا عجيباً ولا غريباً، بل هذا هو الواقع الذي ستعرفه وستسلم به إن شاء الله عندما تنكشف لك الحقائق جلية، وتنتصب أمامك الأدلة مشرقة واضحة، وعندها سيزول بإذن الله ماعلق بذهنك، وستتخلص مما رسب في عقلك من رواسب المغالطات التي تغالطون بها أنفسكم وتظنونها حججاً وبراهين.

الدليل على توحيد المشركين وإيمانهم بالله :

فقال : الدليل ياصاحبي، ماهو الدليل على هذا الذي تزعمونه؟ وإذا كان ماتقولونه صحيحاً من أن المشركين الأولين كانوا يؤمنون بالله هذا الإيمان، فما هو ــ إذاً ــ الشرك الذي نعاه الله عليهم وكتب لهم بسببه الخلود في النار، بعد أن أحل دماءهم

وأموالهم وأمر نبيه أن يجالدهم بالسيوف و يطاعنهم بالرماح؟

فقلت له .. وهل غير القرآن مصدر لهذا الدليل .. إن الدليل في هذا الكتاب الخالد الذي تعبد الله أنت وملايين البشر ممن على رأيك، من المنتسبين إلى الإسلام بتلاوته صباحاً ومساءً، ولكن دون أن تكتشفوه فتفهموه.

إعتراف المشركين بأن الله وحده الخالق الرازق المحيي والمميت :

فقد قال تعالى مؤكداً إيمان أولئك المشركين الأولين به سبحانه وتعالى رباً خالقاً ورازقاً، محيياً ومميتاً، ضاراً ونافعاً ـــ قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في حق هؤلاء المشركين:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(١).

---

(١) العنكبوت ٦١.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١).

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ (٢).

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٣)

---

(١) العنكبوت ٦٣.

(٢) المؤمنون الآيات ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩.

(٣) يونس ٣١.

فهذه الآيات البينات ـ ياصاحبي ـ هي دليلنا الذي لايقبل الجدل على أن المشركين الأولين ماكانوا يكفرون بوجود الله، وماكانوا يعتقدون أن له شريكاً يشاركه التصرف في شيء من ملكه بل كانوا يوحدونه في الربوبية توحيداً كاملاً.

فصح بهذا يقيناً، أنهم ماكانوا يلجأون إلى أوليائهم عندما يدعونهم ليهبوا لهم حياة أو يدفعوا عنهم موتاً أو ينزلوا لهم غيثاً.

وماكانوا يتقربون إلى آلهتهم ممن اتخذوا من الأولياء ليكتبوا لهم سعادة أو يمحوا عنهم شقاء، وكيف يصدر منهم مثل هذا، وهم الذين كانوا يؤمنون إيماناً جازماً بأن هذا كله إنما هو من اختصاص ربهم وحده الذي بيده ملكوت كل شيء؟؟ كما قررت هذه الآيات.

فعلى ضوء هذا الدليل الدامغ، يتضح لكم بطلان هذا الشرط الهزيل الذي تتمسكون به حين

تعتقدون أن من يدعو غير الله لايكون مشركاً إلا إذا اعتقد أن الضر والنفع بيد من يدعوه كما يعتقد في الله.

ولو كان هذا الشرط صحيحاً، وما تدّعونه في نظر الإسلام سليماً لما حكم الله على أبي لهب وأبي جهل وحزبهم بالشرك؛ لأن هذا الشرط الذي تشترطونه متوفر فيهم؛ لأنهم كانوا لا يعتقدون أن الضر والنفع بيد من يدعون كما يعتقدون في الله، وقد فصل القرآن ذلك عنهم في الآيات السابقة.

المشركون الأولون كانوا أكثر إيماناً من مشركي هذا الزمن:

أما الدليل على أن توحيد المشركين الأولين وإيمانهم بربهم كان أقوى من توحيد القبوريين وإيمانهم في هذا الزمن فهو أيضاً من القرآن، ذلك الكنز الذي لاينفد والنور الذي لايخبو، فقد قال الله تعالى في حق أولئك المشركين:

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ (١).

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ (٢).

﴿ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ . قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴾ (٣).

فهذه الآيات تثبت أن أولئك المشركين إذا ركبوا في البحر وتعرَّضوا للخطر فتوقعوا نزول قارعة نسوا آلهتهم من الأولياء وغيرهم وكفروا بهم، وأخلصوا الدين لله وحده، وتوجهوا إليه بالدعاء، مُعلِّقين عليه وحده الرجاء؛ لأنهم كانوا يعرفون تماماً

---

(١) العنكبوت ٦٥.

(٢) الإسراء ٦٧.

(٣) الأنعام ٦٣ ــ ٦٤.

أن الـذيـن يـدعونهم من دونه هم أحقر وأضعف من أن يجلبوا لهم أية مساعدة أو يقدموا لهم أي عون في تلك اللحظة الحرجة، بل لأنهم كانوا يدركون أن من يـدعون من دون الله أعجز من أن يسمعوا لهم صوتاً، فضلاً عن أن يجيبوا لهم دعاء.

لـذا فـشـريط المغالطات المعروض أمام بصائرهم يـتـمـزق فـي تـلـك اللحظة الفاصلة، وتتجلى أمامهم الحقيقة جلية واضحة، وهي أن أحداً غير الله ــ مهما كـان ــ لايمـكـن الالـتـجـاء إلـيه لإنقاذ الموقف في اللحظات العصيبة.

كيف يلجأ الأولون إلى ربهم عند الشدائد و ينسون آلهتهم؟

فـهـم لهـذا يـلـجأون إلى الله وحده، فيخلصون له الدين، و يدعونه و يتضرعون إليه و يطلبون منه العون والمـدد دون سـواه و يـنـسـون الأولياء الذين اتخذوهم

آلهة من دونه في الرخاء لإيمانهم إيماناً جازماً أنه سبحانه وتعالى الوحيد الذي يقدر على إنقاذهم من الغرق، فهؤلاء المشركون ـــ بشهادة القرآن ـــ يظلون مخلصين لله الدين ماداموا في منطقة الخطر، ولكنهم إذا اجتازوا هذه المنطقة ونجوا إلى البر عاودتهم العادة التي وجدوا عليها آباءهم، فيشركون مع الله غيره في الدعاء والذبح والنذر، وهذا هو الذي أنبهم الله عليه وسماهم بسببه مشركين في قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

هذا هو حال المشركين الأولين في إخلاصهم الدين لله وتوجههم إليه وحده بالدعاء عندما يحزبهم أمر أو يحدق بهم خطر.

كيف ينسى مشركوا اليوم ربهم عند الشدائد و يلجأون لأوليائهم؟

أما مشركوا هذا الزمن من القبوريين فهم على النقيض من المشركين الأولين، فلا يدعون الله ولا

يتضرعون إليه إلا في الرخاء.

أما إذا اشتد بهم كرب أو ضاق بهم مسلك أو تعذر عليهم مطلب، فإنهم ينسون الله سبحانه وتعالى و يذكرون أولياءهم فيجعلون منهم آلهة، فيتقربون إليهم في ضراعة وخشوع بالدعاء والذبح والنذر والخوف والرجاء.

فالبدوي والجيلاني والرفاعي والتيجاني والعيدروس وابن عيسى وغيرهم من الأولياء، لا تسمع الهتاف الحار بأسمائهم، والتوجه بالدعاء الخالص إليهم، إلا عند الشدائد.

والقبوريون إذا ركبوا البحر وأحدق بهم الخطر نسوا الله سبحانه وتعالى، وذكروا أولياءهم، وسارعوا بالابتهال والدعاء إليهم، مستغيثين ومستنجدين، قائلين في ذلة وضراعة: مدد يابدوي، ياجيلاني، يارفاعي.... إلخ، فتراهم يناجونهم وكأنهم عندهم حاضرون.

ولو رأيتهم في هلع وذلة كيف يتبارون في نذر النذور لهؤلاء المقبورين و يتعهدون بتقديم القرابين عند قبورهم إن هم نجوا من الغرق ـ لأدركت مدى حقارة الشرك وخسة الكفر التي تمرغ كرامة الإنسان في مزابلها وأوحالها، حيث تنحدر به من مرتبة الإنسان العاقل إلى منزلة أحط من منزلة الأنعام السائمة.

وأي حقارة وخسة ومهانة أحط من أن ينصرف الإنسان بقلبه عن خالقه ورازقه، عن ربه الذي هو معه يسمع و يرى، ثم يتوجه في ضراعة وخشوع إلى عظام نخرة عجزت عن صد غارات الدود الذي اقتتل على التهام اللحم المحيط بها في القبر يتوجه إليها، فيطلب منها العون والمدد داعياً إياها ومستغيثاً بها لتسارع لإنقاذه من الغرق؟؟ وصدق الله العظيم:

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ (١)

---

(١) الأحقاف ٥.

ولقد حضرت كثيراً من هذه الحماقات فتأذى نظري واكتوى قلبي من تلك المهازل الشركية والتصرفات الجاهلية.

كيف اصطدم المؤلف بالقبوريين عندما أشرفوا على الغرق؟

وقد حضرت كثيراً من هؤلاء وهم يتضرعون إلى أوليائهم بالدعاء الحار في البحر، وذلك عندما كنت مسافراً في البحر الأحمر، منذ أكثر من خمس وعشرين سنة.

فقد كنا أكثر من ثمانين راكباً في سفينة شراعية صغيرة، وعندما هاج علينا الموج وغشينا من كل مكان صارت السفينة تهبط بنا بين الأمواج الهائلة، وكأنها تنوي الاستقرار في قاع البحر، وترتفع مع المد وكأنها تريد الطيران من البحر.

وفي تلك الساعة العصيبة ضج القبوريون

بالدعاء وطلب العون والمدد، لا من الله الحي القدير على كل شيء، وإنما من الميت الذي لايقدر على شيء.

فقد توجهوا بقلوب خاشعة كسيرة إلى الشيخ سعيد ابن عيسى رحمه الله الذي فارق الحياة منذ أكثر من ستمائة سنة، وأخذوا يدعونه في فزع مشوب بالرجاء، قائلين: (**يابن عيسى، يابن عيسى، حلها ياعمود الدين**) وأخذوا يتسابقون بنذر النذور له والتعهد بتقديمها عند قبره إن هم نجوا من الغرق، وكأن أمرهم بيده لابيد الله سبحانه وتعالى.

كاد القبوريون يقذفون بالمؤلف إلى البحر

وعندما حاولت ــ على صغر سني حينذاك ــ إقناعهم بأن هذا موقف لا يصح أن يتوجه فيه مسلم إلى غير الله ورجوت منهم ــ في شفقة وإخلاص ــ أن يلجأوا إلى ربهم ويخلصوا له الدين بالتضرع بالدعاء إليه وحده، وأن يتركوا الشيخ ابن عيسى

الذي ليس له من الأمر شيء، الذي لايسمعهم فضلاً عن أن يجيب دعاءهم، ثاروا وصاحوا جميعاً (وهّابي ، وهّابي!!) وكادوا يقذفون بي بين الأمواج المائجة لولا أن الله حماني منهم ثم بعض الذين يكتمون إيمانهم في السفينة.

وعندما هدأت العاصفة ونجونا بعون الله تعالى وفضله وحده وليس بفضل ابن عيسى طبعاً وأقبل بعضنا يهنىء بعضاً، أخذ هؤلاء القبوريون يؤنبونني ويخوفونني من سوء الظن بالأولياء، ممتنين عليّ بالنجاة ومذكرين بأنه لولا حضور القطب (ابن عيسى) وخفانه في تلك الساعة العصيبة لكنا جميعاً في بطون الأسماك.

خرافة حضور الأولياء عند الشدائد :

فقلت لهم : ـ وقد أوجعني سماع هذا الكفر الصراح ـ: إنكم تظلمون أنفسكم وتفترون على الشيخ ابن عيسى رحمه الله.

إن هـذا الـشيـخ المـيـت لهو أعجز من أن يسمع دعـاء كم، فضلاً عن أن يجيبه، فيحضر هنا بين هذه الأمواج لإنقاذكم.

اعـقلوا أيها القوم، إن هذا الذي تدعونه من دون الله ميت، وقد قرر الله أن الميت لايسمع وبهذا جاء القـرآن، قـال الله تـعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ (١) ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ (٢)

---

(١) النمل ٨٠.

(٢) فـاطـر ٢٢. هـذه قـاعـدة كـونـية عامة ثابتة لا تتغير وهي أن الميت (أي ميـت) لا يـسـمـع إلا من جـاء فـي حـقـه دليل خاص وفي حـالات خـاصـة، فـهـذا خصوص يبقى معه العموم على حاله، فمن أيـن ـ إذاً ـ الدليل لهؤلاء القبوريين على أن أولياءهم من الموتى يـسمعونهم، فهل جاء في القرآن أن الشيخ فلان أو السيد علان قد خصـه الله من بين الميتين أنه يسمع من يناديه من كان وفي أي مـكـان كـان؟ وإذا فرضنا ـ جدلاً ـ أنهم يسمعونهم فهل رخص الله لهـم فـي أن يـدعوهـم و يـستغيثوا بهم من دونه؟ وهل أخبرهم =

ولكنكم لجهلكم بسنن الله، وإعراضكم عن تدبر وفهم ماجاء في كتاب الله، تقعون في مثل هذه الحماقات، فتنصرفون بقلوبكم عن القادر على كل شيء الذي هو معكم يسمع و يرى، وتتوجهون إلى الميت العاجز الذي هو في غفلة عنكم لايسمعكم ولا يراكم.

أما نجاتنا : فلا أثر لابن عيسى ولا لغيره فيها البتة، وإنما الذي نجانا بفضله وكرمه هو الله العلي القدير وحده، دون أن يؤثر عليه دعاؤكم لصالح أو استغاثتكم بنبي؛ لأن الكل ـ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين رضي الله عنهم ـ ليس معنا أحد منهم في تلك اللحظة الحرجة، وإنما الذي كان معنا وحده هو الله الواحد الأحد الذي يسيرنا في البر والبحر.

= أنهم مخولون بإجابة دعائهم والعمل على إنقاذهم عند الاستغاثة؟؟ سيبقى هذا السؤال دون أن نجد له جواباً مقنعاً عند هؤلاء القبوريين إلى يوم يبعثون.

فقال أحدهم (متفلسفاً) : نحن لا ننكر أن الله فوق الجميع بيده كل شيء.

فقلت له : هذه مغالطة قديمة، قالها المشركون الأولون، وقولك هذا يخالفه فعلك، فلو كنت مؤمناً بما تقول إيماناً صادراً من قلبك، ما انصرفت في ساعة الكرب والشدة عن هذا الرب الخالق العظيم وتوجهت إلى المربوب الميت الحقير، فصرت أقل إيماناً وأضعف ثقة بالله من المشركين الأولين الذين يخلصون له الدين و يتوجهون إليه وحده في الشدة، كما حكى ذلك عنهم.

كيف يتمثل الشيطان للقبوريين في صور أوليائهم؟

وقال لي آخر (وكأنه حجني) : إنك تكره الأولياء وتنكر كراماتهم، ولذلك حرمك الله من التمتع بما رأينا في تلك الساعات الحاسمة...

فقلت له: ومن قال لك أنني أكره الأولياء وأنكر كراماتهم؟ فهل رأيتني أشتم ولياً من أولياء الله؟ أو انتقص صالحاً من صالحي المؤمنين؟ ومتى سمعتني أنكر كرامة ثابتة أكرم الله بها ولياً من أوليائه نص عليها كتابه أو جاءت بها سنة نبيه صلى الله عليه وسلم؟؟

فهل سمعت أنني أنكرت كرامة أهل الغار الذين أكرمهم الله فأفرج عنهم الصخرة بعد أن انطبقت عليهم وسدت عليهم منافذ الغار؟

أم هل سمعتني أنكرت ولاية أبي بكر وعمر وعثمان أو علي وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم الذين ثبت بنص الحديث الشريف أنهم من أولياء الله المبشرين بالجنة؟

أم أنها التهمة التقليدية المكرورة توجهونها إلى كل من لايوافقكم على حماقاتكم ولا يؤمن بخرافاتكم ولا يسكت على جهالاتكم؟؟

ولكن قل لي ماهو الذي حرمني الله من التمتع به والذي رأيتموه أنتم في تلك اللحظة الحاسمة؟

قال : رأينا القطب العظيم (الشيخ سعيد بن عيسى) وكأنه شعلة من نور ماسكاً بالدقل (سارية السفينة) وهو يخاطب البحر طالباً منه أن يسكن، وفعلاً سكن البحر عن الهياج ونجونا ببركة هذا القطب العظيم.

فقلت له : (ساخراً) هل سبق لك أن عرفت الشيخ سعيد بن عيسى العمودي الذي مر على وفاته أكثر من ستمائة سنة؟

قال : (طبعاً) لا..

فقلت له : كيف إذاً عرفت أن الذي رأيته من على الدقل يصدر أوامره إلى البحر بالسكون، هو الشيخ سعيد بن عيسى العمودي، وأنت لم يسبق لك أن رأيته؟؟ فهل نزل عليك وحي من السماء يؤكد أن الذي رأيت ــ على فرض أنك رأيت ــ هو الشيخ ابن عيسى؟ وهنا ارتج عليه، ولم يحر جواباً.

غلبت عليه السوداء

فتصور ابن عيسى معه حاضراً

فقلت له : الحقيقة أنك لم تر ابن عيسى ولا غير ابن عيسى على الدقل، وإنما في حالة الهلع والخوف غلبت عليك السوداء فصورت لك ــ بالاشتراك مع الشيطان ــ ماظننته ابن عيسى، لتزداد إيغالاً في ضلالك وتوغلاً في مفاوز جهالاتك.

وقد كان جوابه الوحيد الذي قطع به المناظرة غريباً حين صاح:

وهابي، جاحد، زنديق. وهذا هو آخر سلاح يتسلح به القوم عندما تدمغهم حجة أو يصفعهم برهان.

هنا قلت لصاحبي : والآن مارأيك؟؟

أليس في هذا مايقنعك بأن ماذكرته لك كان

صحيحاً من أن إيمان المشركين الأولين بربهم وثقتهم به في الشدة كان أقوى من إيمان القبوريين وثقتهم به سبحانه وتعالى؟

مغالطات القبوريين :

فقال : لقد قسوت على هؤلاء الناس إذ وصفتهم بالشرك وجعلت إيمانهم بالله وتوحيدهم له أقل من إيمان وتوحيد المشركين الأولين، مع العلم أن هؤلاء القبوريين ــ كما تصفهم ــ عندما هتفوا باسم ابن عيسى واستغاثوا به في تلك الساعة الحرجة لم يفعلوا ذلك لعدم ثقتهم بالله، ولم يفعلوه اعتقاداً منهم أن ابن عيسى وغيره ممن يدعون هم الذين يسيرونهم في البر والبحر، أو أنهم معهم يسمعون ويجيبون نداءهم كما يجيبه الله سبحانه وتعالى.

وإنما يفعلون ذلك لاعتقادهم أن الله سبحانه وتعالى سينجيهم ببركة توسلهم بهؤلاء الأولياء، فهم ما لجأوا إليهم وهتفوا بأسمائهم في تلك اللحظة

الخطيرة إلا لاعتقادهم أن لهؤلاء جاهاً عند الله لابد وأن ينجيهم إكراماً لأوليائه الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون.

قلت له : هذه مغالطة قديمة مكررة، لايمكن أن تجوز على عاقل يحترم نفسه لعدة وجوه:

منها : أن هؤلاء القبوريين لولم يعتقدوا أن هؤلاء الأولياء من الأموات هم معهم في السراء والضراء يسمعون استغاثتهم ويجيبون دعاءهم، وأن في يدهم القدرة على إنقاذهم، لما ابتهلوا إليهم هكذا، واستنجدوا بهم في ضراعة وتذلل، استنجاد العاجز الضعيف بالقوي القادر على كل شيء، ولما نذروا لهم هذه النذور، وتعهدوا بتقديم القرابين لهم، إن هم أعانوهم على النجاة من الغرق، بل ولما وفوا لهم بهذا النذر رغبة ورهبة.

وهل يقدم عاقل على الهتاف والاستغاثة والاستنجاد بمن يعلم أنه لايسمعه ولايجيبه، ولايضره ولاينفعه؟

دعاء الميتين من الأولياء

إما كفر أو جنون

إن الذين يدعون الأولياء من الميتين هم بين أمرين: إما أنهم يعتقدون أن هؤلاء الميتين يسمعونهم ــ على بعد المسافة ــ ويجيبونهم و يعملون على إنقاذهم أو لايعتقدون، فإن اعتقدوا هذا ــ وهو مايعتقدونه فعلاً ــ فهو الشرك الأكبر الذي لايغفره الله لهم.

وإما أن يعتقدوا أن هؤلاء المدعوين لايسمعون ولا يجيبون وهذا هو الجنون، والمجنون قد سقط عنه التكليف، فهؤلاء القبوريون ــ إذاً ــ إما مشركون وإما مجانين وعليك أن تضعهم حيث شئت.

والحقيقة أن هؤلاء القبوريين ليسوا بمجانين، ولكنهم مفتونون فتنهم الشيطان وزين لهم هذه الأعمال الشركية وحببها إلى قلوبهم.

فلو لم يثقوا في قدرة أوليائهم على انقاذهم أكثر من ثقتهم في الله العلي القدير لما أعرضوا عنه جل وعلا وتوجهوا إلى الميتين، خاشعين متضرعين متذللين.

فأي كفر وضلال بعد هذا، وماذا أبقوا بعد هذا لله الذي خلقهم وصورهم؟؟

وبعد أن وصلت مع صاحبي إلى هذه الدرجة من النقاش قال لي ــ في ارتباك ــ: ولكن.. ولكن.. وتطور ارتباكه إلى تلعثم، ثم عيَّ في الكلام فتظاهر بالبحث والتأمل..

فقلت له : من غير لكن.. ولكن..

والدليل في منتهى الوضوح، وليس لديكم مايدفعه أو يقف في طريقه، فليس هناك دليل على هذه الحماقات الشركية والسخافات الوثنية إلا المغالطة والتمسك بالأوهام والتمحلات التي بها تئدون دينكم وتنحرون إسلامكم.

ثم قلت له : أعتقد أنني بعد هذا الشرح والإيضاح لست بحاجة إلى التوسع لإقناعك بأن الشرك الذي نعاه الله على المشركين الأولين ليس اعتقادهم فيمن يدعون (كيغوث و يعوق ونسرا، واللات والعزى ومناة) أنهم يشاركون الله في خلق أو إيجاد، إحياء أو إماتة، ضر أو نفع، وليس إنكارهم وجود الله تعالى، أو نفيهم كون ملكوت كل شيء بيده، فهذا لم يقله أحد من أولئك المشركين.

الشيوعية قبل الإسلام :

فقال : ـ وكأنه وجد الحجة ـ بلى، لقد ثبت في القرآن أن هؤلاء المشركين ينكرون وجود الله فهذا قائلهم يقول ـ كما حكى الله عنهم ـ:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [1].

(١) الجاثيه ٢٤.

فقلت له : إن هؤلاء ليسوا المشركين الذين تحدثنا عنهم سابقاً، وإنما هم الدهريون الملاحدة، وهم فرقة من العرب الذين يسير الشيوعيون اليوم على مذهبهم، فهؤلاء لايؤمنون بالله، ولا بما يعتقده المشركون مقرباً لله، فهم ـ أي الدهريون ـ ينكرون وجود الله وتبعاً لذلك يكفرون بالأصنام والأوثان والآلهة التي يتخذها المشركون واسطة تقربهم إلى الله.

فمصدر شرك المشركين الأولين إنما هو إيمانهم بوجود الله مع التوسل إليه وطلب العون من غيره، وهذا ماعناه الله تعالى بقوله :﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(1).

فلو لم يكن المشركون يؤمنون بالله، ما اتخذوا هذه الآلهة واسطة تقربهم إلى الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا

---

(1) يوسف ١٠٦.

نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[1].

فصح بهذا يقيناً أن المعنيين بإنكار وجود الله في آية الجاثية التي أوردتها محتجا بها عليّ، ليسوا المشركين الذين حدثتك عن حقيقتهم، وإنما هم بعض العرب الدهريين، أو الشيوعيين، إن صح هذا التعبير.

لأنه يستحيل على الذين يدافعون عن شركهم ويبررونه بقولهم في آلهتهم وأوليائهم ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[2]، أو ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[3]، يستحيل عليهم أن ينكروا وجود الله الذي ما اتخذوا الآلهة من الأولياء إلا ليقربوهم إليه ويشفعوا لهم عنده، هذا بالإضافة إلى الآيات الأخرى التي تثبت اعترافهم صراحة بوجود الله وتوحيدهم لله في الربوبية كما تقدم.

---

(١)(٢) الزمر ٣.

(٣) يونس ١٨.

حقيقة الشرك
الذي كان عليه المشركون الأولون

فقال صاحبي : (وقد أعياه طول النقاش) :

فما هو ـ إذاً ـ الشرك الذي نعاه الله على المشركين في القرآن وأحل به دماءهم وأموالهم وأمر رسوله بقتالهم عليه، مادام أنهم يؤمنون بالله تعالى ويوحدونه هكذا؟

فقلت له : سؤال في الصميم.

هذه هي النقطة الحساسة التي عندها تضل الأفهام وتزل الأقدام، والتي لو وقف الناس عندها وقفة تبصر وتفهم وتدبر، وأعطوها حقها من البحث والمقارنة، لما وجدت منتسباً إلى الإسلام واحداً يتوجه بدعاء أو استغاثة أو ذبح أو نذر أو غير ذلك مما هو حق الله وحده إلى غيره سبحانه وتعالى من الأنبياء ومن دونهم من الأولياء وغيرهم.

جهل الناس اليوم بحقيقة شرك مشركي العرب أوقعهم في الشرك

فجهل الناس في هذه الناحية الخطيرة وعدم معرفتهم بحقيقة الشرك الذي كان عليه المشركون الأولون ــ هو الذي أوقعهم فيما لايظنونه شركاً وهو الشرك بعينه، ولوثهم بمالا يحسبونه كفراً وهو الكفر ذاته (دعاء الأموات والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم ليشفعوا لهم و يقربوهم إلى الله زلفى) دون أن يأذن الله لهم في ذلك.

تخوف ابن الخطاب من الوقوع في الشرك

ولقد أبدى عمر بن الخطاب رضي الله عنه تخوفه مما وقع فيه الناس اليوم من الشرك، منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً حيث قال:

«ستنقض عرى الإسلام عروة عروة» قيل وكيف ذلك ياأمير المؤمنين؟ قال: «إذا نشأ في

الإسلام من لا يعرف الجاهلية» أو كما قال، فهؤلاء الذين يدعون الأموات اليوم، و يذبحون و ينذرون لهم، و يطوفون بقبورهم. مقدسين ومعظمين خاشعين لهم، ومتضرعين إليهم بقصد التوسل والتوسط بهم إلى الله، لو عرفوا أن هذا هو عين العمل الذي كان عليه العرب في الجاهلية والذي سماه الله شركاً واعتبره كفراً لما أقدموا عليه وتمسكوا به، وثاروا وغضبوا على من أنكره عليهم.

أما الشرك الذي كان عليه المشركون الأولون والذي طلبت مني إيضاحه وسألتني عن حقيقته فهو أن أولئك المشركين ـ مع إيمانهم المطلق بوجود الله وتسليمهم بقدرته المطلقة على التصرف في جميع شؤون الكون دونما شريك أو ظهير ـ كانوا قد ابتدعوا بدعة ماأنزل الله بها من سلطان، هذه البدعة استحسنتها عقولهم وسكنت إليها نفوسهم.

وهي أنهم اتخذوا من المخلوقين (كاللات والعزى ومناة و يغوث و يعوق ونسرا) أولياء ووسائط يلجأون

إليهم، و يتقربون إليهم بالدعاء والنذر والذبح ليقربوهم إلى الله و يشفعوا لهم في قضاء حاجاتهم وكشف كرباتهم، دون أن يأذن الله لهم بذلك أو يرضاه.

وهذا ماعناه القرآن وأنكره عليهم بقوله:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1]، و يعبدون: أي يدعون، وقوله: ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[2].

(١) يونس ١٨.

(٢) السجدة ٤.

إتخاذ الأولياء وسائط

إلى الله هو عين الكفر

وعلى أساس هذه الفلسفة، فلسفة التوسل والتوسط والتشفع بهؤلاء الآلهة من الأولياء، كانوا يدعونهم ويستغيثون بهم ويذبحون وينذرون لهم ويطوفون حول أنصابهم وتماثيلهم جاعلينهم محط مآلهم ومعقد رجائهم والباب الذي يصلون منه إلى الله بزعمهم.

فهذا وأمثاله هو الذي أنكره الله عليهم واعتبره منهم شركاً وكفراً، به أحل دماءهم وأموالهم وجالدهم عليه محمد صلى الله عليه وسلم بالسيوف في بدر وأحد وحنين والخندق وغيرها، وقطع بينه وبينهم ــ من أجله ــ كل أواصر القرابة والنسب.

واعتبره الله عبادة منهم لغيره وشركاً به، وغضب عليهم وأبعدهم من رحمته، لأنهم سلكوا هذا الطريق

وابتدعوا هذه البدعة، بدعة اتخاذ الوسائط والشفعاء، يتوكلون عليهم و يلجأون إليهم ليكونوا بابهم إلى الله دون أن يأذن لهم سبحانه وتعالى بذلك ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[1].

فقال صاحبي: هذا أيضاً قول مجمل ليس فيه من الأدلة القطعية مايقنعنا بصحته، فما هو الدليل المفصل على صحته؟؟

فقلت له: الدليل في كتاب الله أيضاً، فقد قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ . مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

---

(١) البقرة ٢٥٥.

(٢) الحج ٧٣، ٧٤.

كما أنكر عليهم في آية يونس السابقة دعاءهم غيره واتخاذهم وسائط تشفع لهم عنده، وجعل ذلك شركاً به وعبادة لغيره حين قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ثم أنكر عليهم مبطلاً دعواهم وراداً حجتهم هذه ــ حجة التشفع والتوسل ــ في تقريع وتوبيخ بقوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

أي أنه سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى أن يتقدم إليه أحد في هذه الدنيا بوسيط أو شفيع لأنه لايخفى عليه شيء من حال عباده حتى يتقدموا إليه بالشفعاء والوسطاء ليخبروه بما خفي عليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقال تعالى منكراً عليهم التوسط بمن يظنون بهم

---

(١) يونس ١٨.

خيراً من الصالحين وموضحاً أن هؤلاء الذين يدعونهم من دونه هم عباد أمثالهم لايملكون لأنفسهم جلب نفع أو دفع ضر، فضلاً عن أن يكشفوا عنهم ضراً أو يحولوا عنهم سوءاً، بل إنهم مع قربهم منه جل وعلا يتقربون إليه بالخوف منه والرجاء في رحمته ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ[1] يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[2].

وقال تعالى معتبراً دعاء غيره من المخلوقين شركاً:ـ

﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ . إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[3].

---

(١) وفي قراءة : تدعون.

(٢) الإسراء ٥٦، ٥٧.

(٣) فاطر ١٣، ١٤.

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾[1].

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[2].

فهذه بعض الأدلة ــ لا كلها ــ التي تثبت لك صحة ماذكرت لك من حال المشركين وتوضح حقيقة الشرك الذي كانوا عليه، هذا الشرك الذي يقع كثير من الناس فيه لجهلهم بحقيقته.

نسف أعظم شبهة يتمسك بها القبوريون :

قال صاحبي : إن هذه الآيات التي ذكرت لي

---

(١) الرعد ١٤.

(٢) الزمر ٣.

إنما نزلت في المشركين من العرب في الجاهلية فهي خاصة بهم، أما هؤلاء الذين يستغيثون اليوم بالأولياء فلا صلة لهذه الآيات بهم ولايمكن أن تنطبق عليهم.

فقلت له : وهذه حجة منقوضة ومغالطة مكشوفة.

فهذه الآيات ــ حقاً ــ إنما نزلت في أيام مشركي العرب وفي حقهم، بل القرآن كله إنما نزل في تلك الأيام، ولكن هذا الكتاب الخالد هو خطاب الله لعباده في كل زمان ومكان، وأوامره خالدة يجب اتباعها، ونواهيه أبدية يحتم اجتنابها إلى يوم يبعثون.

فالعبرة في القرآن بعموم اللفظ لابخصوص السبب، والقاعدة الثابتة عند جميع المسلمين هي أن الحكم يدور مع العلة فأينما وجدت العلة وجب الحكم.

والعلة في شرك المشركين الأولين هي أنهم كانوا يدعون من دون الله عباداً أمثالهم و يعتمدون عليهم

ليكونوا شفعاءهم عند الله، وهذا هو نفس الشيء الذي يفعله القبوريون اليوم، يدعون الأولياء ويستغيثون بهم ليكونوا واسطتهم إلى الله، ومن هنا جاء الحكم على الفريقين بالشرك دونما تمييز؛ لأنهم اتحدوا في القصد والعمل، التوجه إلى غير الله بالدعاء والذبح والنذر ليكون شفيعهم عندالله.

فقال: إن قياسك هذا الذي طبقت بموجبه حكم الشرك على الفريقين دونما تمييز هو قياس مع الفارق لايمكن التسليم به.

فقلت له: الآن وقد أوضحت لك بعد أن أجهدت نفسي أن كفر المشركين الأولين إنما كان في اتخاذهم الوسائط والشفعاء والتقرب إليهم بالدعاء والذبح والنذر لهم، وبينت لك أن القبوريين اليوم إنما يسلكون نفس هذا الطريق، ويسيرون على هذا المنهج حذو القذة بالقذة، فهل لك أن تبين لي ماهو الفرق الذي يجعل عمل أولئك كفراً وشركاً، يعاقب الله عليه بالخلود في النار،

وصنيع هؤلاء توسلاً مباحاً يرضى الله عنه ولايعاقب عليه، مع اتحاد الفريقين في العمل واتفاقهما في المقصد؟

فقال : الفرق من عدة وجوه :

(أولاً) (*) : أن أولئك المشركين كانوا يعبدون غير الله، وقد جاء اعترافهم بعبادة غير الله واضحة في قولهم ــ كما حكى الله عنهم ــ ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾.

أما المتوسلون اليوم بالأولياء فهم ينكرون عبادة غير الله، و يقولون إنهم لايقصدون بدعاء الأولياء من الأموات والاستغاثة بهم عبادتهم، وإنما يقصدون التبرك والتوسل، ومن هنا يجيىء التميز بينهم و بين المشركين في الحكم.

(*) بتتبع الكتاب لم نجد بقية الوجوه فلعلها وردت في الكلام ضمناً (الناشر)

تبديل الألفاظ لايغير من الحقيقة شيئا

فقلت له : إن الأفعال والمقاصد ـ كما قلت لك فيما مضى ـ هي التي يترتب عليها الحكم ولاقيمة للألفاظ التي يتشبث بها للدفاع عن تصرفه، خوفاً من صدور الحكم عليه، مادام أن فعله هو العلة الموجبة للحكم الذي صدر ضده.

فلو أن إنساناً اعتاد السجود للصنم، وظلّ ـ مع إدمانه على هذا السجود ـ يعلن استنكاره لعبادة غير الله، ويصرح بأنه لم ولن يعبد غير الله، فهل يكون قوله هذا مع فعله ذاك مانعاً من إدانته بالشرك والحكم عليه بالكفر؟؟.

فقال صاحبي... لا... بل هو كافر ومشرك.

فقلت له : فهذا ـ إذاً ـ ينطبق تماماً على القبوريين اليوم، فتصرفاتهم قد أدانتهم بالشرك والكفر، ومع هذه الإدانة الصريحة، فهم ينكرون هذا ولايعترفون به.

فالفرق بينهم وبين المشركين الأولين هو أن أولئك المشركين أكثر صراحة عندما اعترفوا بعبادتهم لغير الله، والمشركون من القبوريين أعرق في التمويه والمغالطة عندما أقدموا على عبادة غير الله ثم أنكروا هذه العبادة وسموها بغير اسمها.

فقال (محاولاً المغالطة) : أنا قد قلت ولا أزال أقول لك: إن فعل المشركين الأولين هو عبادة لغير الله، وبفعلهم هذا استحقوا اسم الشرك ووصف الكفر.

وأفعال المتوسلين اليوم بالأولياء والمستغيثين بهم ليس عبادة لهم، ولهذا لايصح الحكم عليهم بالكفر والشرك.

فقلت له : لقد أجهدتني بتكرار محاولاتك للتهرب من الاعتراف بالحقيقة التي ماكنت اعتقد أن عاقلاً مثلك يماري في الاعتراف بها هكذا.

ولقد أوضحت لك ــ بما لا مزيد عليه من الشرح ــ حقيقة إيمان المشركين الأولين بوجود الله وتوحيدهم إياه جل وعلا في الربوبية توحيداً كاملاً وبينت لك بكل وضوح، حقيقة الشرك الذي كانوا عليه والأسباب الموجبة لإدانتهم به والحكم عليهم.

وشرحت لك بالتفصيل أن حكمنا على هؤلاء القبوريين بالشرك إنما جاء نتيجة للمقارنة بين فعلهم وفعل أولئك المشركين الأولين الذين أصدر القرآن حكمه في حقهم منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، وتوصلنا ــ بعد البحث الدقيق والمقارنة الصحيحة ــ إلى أن مايفعله القبوريون اليوم مع أوليائهم من دعاء واستغاثة وذبح ونذر وخوف ورجاء هو عبادة لغير الله سبحانه وتعالى؛ لأنه ــ بالضبط ــ نفس الفعل الذي كان يفعله المشركون الأولون مع أوليائهم ومدعويهم من دون الله، وهو الذي اعتبره الله منهم عبادة لغيره، ولكنك مع هذا تصر على التمييز بين الفريقين في الحكم، ومع أن الجميع ــ

باشتراكهم في القصد والعمل ـ يجتمعون على عبادة غير الله.

ومادام أن هذا لايزال هو رأيك فإن لي سؤالاً أرجو منك الإجابة عليه بالتفصيل، وهو:

هل لك أن تشرح لي حقيقة العبادة التي عبد المشركون بها غير الله فسماهم بها مشركين وحكم عليهم بالكفر من أجلها؟

الدعاء والذبح والنذر لغير الله هو الشرك الأكبر:

إنني أريد منك الإجابة على هذا السؤال، لكي نستطيع إدراك ما إذا كان هناك فرق بين الفريقين، به ندرك صحة نظريتك التي تعتبر عمل أولئك المشركين الأولين عبادة لغير الله وتنفي عن القبوريين صفة هذه العبادة؟

وهنا بدت عليه الحيرة والارتباك، فقد تلقى هذا

السؤال وكأنه سوط ألهب ظهره فقد أوقعه هذا السؤال بين شقي الرحى، ولكنه لم يستسلم إلا أنه ــ من فرط حيرته ــ اعترف بحقيقة كان ــ طيلة المناقشة ــ يحاول التهرب من الاعتراف بها.

فقد قال :

إن الحقيقة التي يجب الاعتراف بها، هي أن المشركين الأولين ماكانوا يفعلون مع أصنامهم أكثر من أنهم يتقربون إليها بالدعاء والذبح والنذر والطواف، وماشابه هذا من العبادات والقرب، مع اعتقادهم أنها لاتخلق ولا ترزق ولاتحيي ولا تميت، ولا تدفع شراً ولاتجلب خيراً.

فهدفهم مما يعملون لها إنما هو لترضى عنهم فتقربهم إلى ربهم وتشفع لهم عنده، ليكونوا محل رحمته ورعايته.

وهذا هو حقيقة عبادتهم لغير الله، والتي بها سماهم الله مشركين وحكم عليهم بالكفر، ولا

أكتمك بل أقولها صراحة أنني ماكنت أعرف أن هذا هو حقيقة الشرك الذي كان عليه المشركون الأولون، إلا من سير المناقشة التي دارت بيني وبينك هذه المرة.

فقلت له : عظيم جداً، لقد اتفقنا إذاً ــ بعد طول النقاش ــ على نقطة من أهم النقاط في الموضوع، وهي تحديد العبادة التي كان عليها المشركون الأولون، وهذا يعني طبعاً أنك تعترف وتقرر بأن الدعاء والذبح والطواف والنذر والتذلل والتضرع عبادة.

لافرق بين القبوريين اليوم وبين المشركين الأولين

ثم قلت له: والآن وقد وفقت في الإجابة على هذا السؤال، فإن لي سؤالاً آخر أرجو منك الإجابة عليه بنفس الصراحة التي أجبت بها على السؤال الأول.

أليس القبوريون اليوم يتوجهون إلى أوليائهم من الميتين بالدعاء والذبح والنذر والطواف والتضرع والخشوع، لكي يرضوا عنهم فيشفعوا لهم عند الله و يتوسطوا لهم لديه؟؟

فقال : بل وهذا هو واقع حاضر الذي لايمكن إنكاره البتة.

فقلت له : إذاً لقد اتفقنا على أن الفريقين متساويان في هذه الناحية، القبوريون يتوجهون إلى أوليائهم بالدعاء والتضرع والذبح والطواف، وكذلك يفعل المشركون مع معبوديهم من دون الله ومعنى هذا أن كلاً من الفريقين يتوجه بالعبادة إلى غير الله، وهذا هو عين الشرك الذي حرمه الله.

فهل يبقى ــ بعد هذا ــ لديك مانع من الاعتراف بأن القبوريين بعملهم هذا قد أشركوا بالله، لتساويهم واتحادهم ــ في القصد والعمل ــ مع المشركين الأولين؟؟

هل هناك فرق بين دعاء الأصنام والأوثان وبين دعاء الأولياء والصالحين؟

فقال : نعم، المانع لدي من الاعتراف بهذا، هو أن أولئك المشركين يدعون أصناماً وأوثاناً هي من صنع أيديهم، ليس لها جاه أو منزلة عند الله وهؤلاء (القبوريون كما تسمونهم) يدعون أولياء و يستغيثون بصالحين لهم جاههم ومنزلتهم عند الله، كما قال تعالى:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1].

فالفرق كبير بين الأحجار والأصنام التي اتخذ المشركون منها آلهة يعبدونها وبين الأولياء والصالحين الذين لم يقل الداعون لهم بأنهم آلهة من دون الله.

---

(١) يونس ٦٢.

فقلت له : لقد استبشرت فيما مضى، حيث بدا لي أنك أخذت في السير على الطريق الصحيح المؤدي إلى معرفة الحق والصواب، ولكنك مع الأسف أركست في الحمأة من جديد، حيث عدت إلى سلوك طريق الزوغان والمغالطة التي تجعل نقاشنا يدور في حلقة مفرغة ينتهي من حيث بدأ ويبدأ من حيث انتهى.

إن تفريقك هذا هو في غاية السخف والغباء، وحجة هي من الضعف والتخاذل بحيث لايمكن النظر فيها فضلاً عن قبولها.

فالمعروف عند جميع المسلمين ــ كما هي القاعدة المقررة ــ أن التوجه بالعبادة ــ أية عبادة ــ إلى غير الله تعالى، هي كفر بالله وشرك مخرج من الملة.

ولافرق، سواء كان المتوجه إليه بالعبادة نبياً مرسلاً أو ملكاً مقرباً أو ولياً صالحاً أو حجراً أصمَّ أو شيطاناً مريداً، وهذا ما لايختلف فيه اثنان من المسلمين.

ولقد اعترفت ـ أنت ـ أثناء مراحل هذه المناقشة، بأن الدعاء والذبح والنذر والطواف هو عبادة.

واعتبارك توجيه المشركين هذه العبادة إلى أصنامهم وأوثانهم كفراً بالله وشركاً به، وتوجه القبوريين بنفس هذه العبادة إلى أوليائهم من سكان الأضرحة، ليس عبادة ولا شركاً، هو غاية التعسف والحيدة المقصودة عن جادة الحق والصواب ومحاولة فاضحة لإنكار أمر واقعه كواقع الشمس والقمر.

فتمييزك هذا ليس له حجة دينية من القرآن أو الحديث تسنده، وليس له برهان عقلي يعضده، وإنما هو قول أملاه منطق العناد والمكابرة الذي ماكنت أظن ـ بعد طول هذه المناقشة ـ أنك ستبقى أسيراً من أسراه وضحية من ضحاياه.

فقال : أنا لست أسيراً لعناد ولاضحية لمكابرة،

وإنما أنا مثلك لي حق التعبير عما أراه وأعتقده، وهـــذا هو الذي لاأزال أراه وأعتقده، وقد اتفقنا في بدء المناقشة على أن نكـــون صرحاء في المناقشة وأن نرفع عواطفنا جانباً، فأرجوك أن لاتنفعل وأن تترك لي حريتي في التعبير عن كل ما أراه، وإذا لم يرق لك الرأي الذي أرى فإن من حقك نقضه ورفضه بما ترى مما تعتقده حججاً وبراهين، على أن يكون ذلك من غير انفعال أو قسوة في التعبير، لأن ذلك له أثره الضار في المناقشة، مما لايساعد على الوصول إلى الغاية المطلوبة التي يدور النقاش من أجلها. فقلت له.. أنا معك في أن الانفعال والقسوة في التعبير أثناء مناقشة ما لايساعدان على الوصول إلى الغاية المطلوبة من المناقشة.

وسأحاول جاهداً إنقاذك مما أعتقد أنه ضلال.

شرك المشركين الأولين

ماكان إلا بعبادتهم الأولياء والصالحين

وبما أنك لا تزال مصراً على التميز بين الفريقين في الحكم، وحجتك أو شبهتك ــ على الأصح ــ هي أن المشركين الأولين كانوا يتخذون من الأحجار أصناماً وأوثاناً يتقربون بها إلى الله، وأن القبوريين اليوم إنما يتوجهون إلى أولياء وصالحين، فأنا مستعد أن أزيل هذه الشبهة الضعيفة، فأثبت لك أن المشركين الأولين كانوا تماماً كالقبوريين الحاليين، لا يتوجهون بالذبح والنذر والطواف والدعاء إلا إلى عباد يعتقدون فيهم الصلاح والاستقامة مع الآدميين، وأنهم ماكانوا ــ في حقيقة أمرهم ــ يعبدون إلا الأولياء والصالحين.

وأن التماثيل والأنصاب ماكانوا يعبدونها لذاتها وإنما يعبدون الأشخاص التي كانت هذه الأصنام والتماثيل والأنصاب ترمز إليهم وتسمى بأسمائهم

(كـيـغـوث و يـعـوق وود ونـسـرا وسـواع والـلات والعزى).

أمـا الـدلـيـل عـلـى أن الـمـشـركين الأولين كانوا كـالـقـبـوريين الـيـوم يـعـبـدون الأولـيـاء والصالحين، و يـتـخـذونهـم آلهـة مـن دون الله، فـهـو فـي الـقرآن الـكـريم، إلا أنـكـم لاتهتدون إليه، فقد خاطبهم الله تعالى جميعاً بقوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2].

ثم وضـع الـقـاعدة العامة في العبادة للجميع في

(١) الأعراف ١٩٤.

(٢) العنكبوت ٤١.

كل زمان ومكان حين قال: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[1].

﴿ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ ﴾[2].

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾[3].

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾[4].

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[5].

---

(١) الزمر ٣.

(٢) الرعد ١٦.

(٣) الكهف ١٠٢.

(٤) الشورى ٩.

(٥) الأنعام ١٤.

فهذه الآيات الكريمة تثبت ــ بما لايدع مجالاً للشك ــ أن المشركين الأولين إنما كانوا كالقبوريين اليوم يدعون الأولياء والصالحين و يتخذون منهم آلهة يعبدونها بالدعاء والذبح والنذر والطواف والخوف والرجاء لتشفع لهم وتقربهم إلى الله زلفى.

المشركون ماكانوا يعبدون الأصنام لذاتها

وأن الأصنام والأنصاب والتماثيل والأوثان (كاللات والعزى ومناة و يغوث و يعوق ونسرا) إنما كانت تمثل أولئك الأولياء والصالحين بحملها أسماءهم، فهم (أي المشركون الأولون) لايعبدون هذه الأصنام والتماثيل لذاتها، وإنما يعبدون الأشخاص المتمثلين فيها، ممن يظنون بهم خيراً، و يعتقدونهم أولياء وصالحين تماماً كما يفعل القبوريون الآن.

وبهذا يتضح لك أن الفريقين ــ القبوريين والمشركين الأولين ــ يتساوون من حيث عبادة

الأولياء، والفرق الوحيد بين الفريقين هو أن المشركين كانوا يعكفون حول التماثيل والأنصاب التي تحمل أسماء أوليائهم و يقصدونها و يتوجهون إليها، والقبوريون اليوم يعكفون حول القبور والتوابيت والأضرحة والمشاهد التي تحمل أسماء أوليائهم و يقصدونها و يتوجهون إليها، على أن المقصود الحقيقي ليس تلك الأنصاب والتماثيل، ولاهذه القبور والتوابيت والمشاهد، وإنما المقصود من تحمل أسماءهم تلك الأنصاب والتماثيل أو هذه القبور والتوابيت.

فلو سألت اليوم أحد القبوريين العائدين للبدوي ــ مثلا ــ من أين أتيت؟ لقال لك جئت من عند سيدي البدوي، بينما هو ــ في الحقيقة ــ لم يأت من عند البدوي ولم يسبق له أن عرفه أو رآه، وإنما أتي من عند القبر أو التابوت الذي يحمل اسم البدوي، نفس الشيء الذي كان عليه المشركون الأولون الذين لم يذهبوا ــ في الواقع ــ إلى

(اللات أو يغوث أو يعوق ذاتهم) وإنما ذهبوا وتوجهوا إلى الأنصاب والأصنام والتماثيل التي تحمل أسماء هؤلاء الأولياء أو من يظنون أنهم أولياء.

الأصنام ليست إلا أسماء رجال صالحين

فقال صاحبي: ومن أين لك الدليل على أن المشركين الأولين ماكانوا يعبدون الأنصاب والأصنام والتماثيل المقامة من الحجر أو الذهب أو النحاس لذاتها، وإنما يعبدون أولياء وصالحين سميت بأسمائهم هذه الأنصاب والتماثيل؟

فقلت له: أما الدليل القاطع على ذلك فقد كان بوسعك ــ لو وفقت ــ أن تفهمه مما مضى من الآيات الكريمة التي تثبت ــ بما لايدع مجالاً للشك ــ أن المشركين الأولين ماكانوا يعبدون إلا الأولياء والصالحين، وقد أوردتها لك فيما مضى من هذا النقاش.

ولكنني زيادة في الإبلاغ وتوسعاً في إقامة

الحجة ورغبة في إزالة كل شبهة يمكنك التشبث بها أو الوقوف عندها: سأذكر لك إن شاء الله مايساند قولي هذا و يطيح بآخر شبهة قد تتمسك بها للبقاء على الرأى الذي تتشبث به.

يغوث و يعوق ونسرا كانوا رجالا صالحين من قوم نوح

(١) روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب، أما (ود) فكانت لكلب (بدومة الجندل) و(سواع) لهذيل و(يغوث) لمراد، ثم صارت لبني غطيف (بالحوف أو الجرف) عند سبأ.

أما (يعوق) فكانت لهمدان، وأما (نسر) فلحمير، لآل ذي الكلاع وكلها أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا

هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت[1]..

(٢) وبمثل قول ابن عباس قال الكلبي في كتابه (الأصنام) ص٥٢ قال مايأتى: «ثم جاء القرن الثالث فقالوا ماعظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله فعبدوهم».

(٣) وقال محمد بن كعب عن (ود وسواع و يغوث و يعوق ونسر): «هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح، فلما ماتوا كانوا لهم أتباعاً يقتدون بهم و يأخذون مأخذهم في العبادة، فجاءهم إبليس وقال لهم: لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة، ففعلوا ثم نشأ قوم بعدهم، فقال لهم إبليس: إن الذين كانوا قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم».

---

(١) اتضح من سير نقاشنا فيما مضى أن عبادة غير الله التي نعاها الله على المشركين إنما هي الدعاء والذبح والنذر والخوف والرجاء المتوجه به إلى غيره من الأصنام والأوثان المقامة بأسماء الأولياء والصالحين.

متى بدأت عبادة الأصنام؟

فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك، وسميت تلك الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروها على صور أولئك القوم من المسلمين.

وروى ابن جرير عن محمد بن قيس قوله: (كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فقالوا: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم) وإلى مثل هذا ذهب عكرمة والضحاك وقتادة وابن إسحاق.

اللات كان رجلا يلت السويق للحجاج:

(٤) أما اللات فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه: «كان اللات رجلا يلت السويق للحجاج» وقال ابن الكلبي في (الأصنام) ص١٦: واللات بالطائف، وهي أحدث من مناة وكانت صخرة مربعة، وكان يهودي يلت عندها السويق، وهو كقول ابن عباس.

(٥) و يقول الشهرستاني ــ صاحب الملل والنحل ــ (وضع الأصنام حيثما قدر إنما هو على معبود عليه الحيا غائب حتى يكون الصنم المعمول على صورته وشكله وهيئته نائباً منابه وقائماً مقامه، وإلا فنعلم قطعاً أن عاقلاًما لا ينحت بيده خشباً صورة، ثم يعتقد أنه إله) [١]. لكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها، وربطوا حوائجهم بها ـــ من غير إذن وحجة و برهان وسلطان من الله تعالى ــ كان عكوفهم ذلك عبادة، وطلبهم الحوائج منها إثبات الهية لها، وعن هذا كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [٢].

فهل بعد هذا يبقى لديك شك في أن الأصنام إنما أقيمت بأسماء أناس اعتقد قومهم فيهم الصلاح وأحبوهم، وأن هذه الأصنام لم تعبد لذاتها وإنما عبدت تبعاً لعبادة من أقيمت بأسمائهم؟

(١) أنظر الملل والنحل للشهرستاني ٢٥١/٣ ــ ٢٥٢ على هامش الفصل لابن حزم.

(٢) الزمر ٣.

إشكال قبوري كبير يحله المؤلف:

فقال ــ وقد بدت عليه علامة التسليم بوجاهة النظرية التي شرحتها له ــ: ولكن الأمر لايزال فيه كثير من الإشكال.

فقلت له: اشرح لى هذا الإشكال وأنا إن شاء الله سأبين لك كل ما أشكل عليك في هذه الناحية.

فقال: تبين فيما أوردت من آيات وآثار أنك تريد إثبات أن المشركين الأولين ماكانوا يعبدون إلا الأولياء والصالحين، لكي تثبت عن طريق القياس أن القبوريين ــ كما تسميهم ــ يعبدون الأولياء والصالحين كذلك.

ولكنه جاء فيما أوردت من آيات أن المشركين كانوا يعبدون الأصنام عبادة حقيقية لذاتها، ولو كانوا لايعبدونها لذاتها وإنما يعبدون الأولياء والصالحين التي تحمل هذه الأصنام أسماءهم، لبين

الله لنا ذلك ولاقتصر القرآن على توبيخ المشركين على عبادتهم الأولياء ماداموا لايعبدون إلا هؤلاء الأولياء، ومادام أنهم (أي المشركون الأولون) لايعتمدون على هذه الأصنام لتشفع لهم عند الله.

ولكن جل التحذيرات والتوبيخات التي جاءت في القرآن لهؤلاء المشركين حول هذا الموضوع إنما كانت مركزة على نهيهم عن عبادة الأصنام والأوثان والأنصاب:ـ

﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾[1].

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[2].

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[3].

---

(١) الحج ٣٠. (٢) العنكبوت ١٧. (٣) العنكبوت ٢٥.

﴿ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ (١).

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (٢).

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ (٣).

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ (٤).

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ (٥)

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ (٦)

فهذه الآيات مما يلقي ضوءا على أن المشركين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان لذاتها ولهذا جاء النهي عن عبادة هذه الأوثان والأصنام صريحاً كما جاء هذا النهي أيضاً عن عبادة الأولياء.

---

(١) الأعراف ١٣٨. (٢) إبراهيم ٣٥. (٣) الأنعام ٧٤.
(٤) الشعراء. (٥) الأنبياء ٥٧. (٦) الأنبياء ٥١ ــ ٥٢.

عبادة الأصنام إنما هي عبادة للأولياء

فقلت له : نعم لقد ثبت هذا النهي عن عبادة الأصنام وعن عبادة الأولياء، وهذا صراحة يدين القبوريين بعبادة غير الله لأنهم يعبدون الأولياء، ولو لم يأت في القرآن إلا النهي عن عبادة غير الله مع ذكر الأصنام وإهمال ذكر الأولياء لاعتبرنا القبوريين عبدة أولياء لأن هؤلاء الأولياء هم غير الله، توجه إليهم هؤلاء القبوريون بنفس العبادة التي يتوجه بها المشركون إلى أصنامهم (الدعاء والذبح والنذر والخوف والرجاء) وهذا على فرض أن المشركين الأولين لم يعبدوا إلا أصناماً وأوثاناً من الحجر والنحاس والذهب وغير ذلك من الجمادات.

ولكن الثابت أن أولئك المشركين كانوا يعبدون الأولياء والصالحين لذاتهم، ويعبدون الأصنام والأوثان والتماثيل لا لذاتها وإنما تبعاً لعبادة معبوديهم الحقيقيين من الأولياء والصالحين الذين أقيمت بأسمائهم هذه الأصنام والأوثان والتماثيل، كما بينته لك فيما مضى بالأدلة القطعية.

لهذا يصفهم الله سبحانه وتعالى مرة بأنهم عباد أصنام، ومرة عباد أولياء، فهم عباد أصنام بالسعي إليها والطواف حولها والعكوف عليها وتقديم القرابين لها وهم أيضاً عباد أولياء بدعائهم لأصحاب هذه الأصنام وطلب حوائجهم منهم والاعتماد عليهم شفعاء ووسطاء عند الله دون أن يأذن لهم بذلك.

وهكذا القبوريون اليوم، يقبلون أستار الضريح ويطوفون حوله ويزينونه ويبنون القباب عليه ويقربون له النذور ، فهم بهذا عباد قبور صراحة وعباد أولياء ضمناً.

ثم هم في طوافهم حول ضريح يدعون صاحبه الميت، ويستغيثون به ويستنجدون، ويطلبون المدد، فهم بهذا عباد أولياء صراحة، وعباد قبور ضمناً..

فإن سميتهم عباد قبور فأنت صادق، باعتبار مايصنعونه للقبور، وإن سميتهم عباد أولياء فأنت صادق باعتبار مايعبدون به أولياءهم من دعاء ونذر وحلف وخوف ورجاء، وهم هم في الحالين

بشركهم الأكبر، وإن سميتهم عباد أوهام وشهوات فأنت صادق، فعابد القبر إنما فتنه هواه فأضله فعبده، وعابد القبر إنما يصور في الضريح و يصنع له ماتنزو به شهواته)[1].

واسمع ماقاله الأستاذ عبدالرحمن الوكيل في كتابه (دعوة الحق ص ٦٢):

التعبير بمن وبما عن آلهة المشركين وتحقيق ذلك

وهذا هو سر التعبير أحياناً (بمن) في موضع والتعبير (بما) في موضع في القصة الواحدة في القرآن، أو سر التعبير بما له دلالة على مايعقل وبما له دلالة على مالايعقل في الموضع الواحد، وضع هذا مكان ذاك في القصة الواحدة.

فإذا عبر بـ(ـما) الدالة على ما لايعقل فالمقصود بماأقيم بأسماء الأولياء من أصنام وتماثيل[2] وكلا التعبيرين لايختلف أحدهما عن صاحبه إلا بالاعتبار أو كلاهما يعبر عن ذلك (الغير) الذي عبد من دون الله.

(١،٢) دعوة الحق ص ٦٢ للأستاذ عبدالرحمن الوكيل.

فتختص (من) بذاته، وتختص (ما) بالصنم أو القبر الذي أقيم باسمه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (١) وفي الآية التي قبل هذه الآية من السورة نفسها وهي الأحقاف ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ (٢) فعبر عن شيء واحد بـ((من)) و ((ما)).

فلا يخدعك عباد القبور عن الحق بإلباسه بالباطل، حين يزعمون أن شرك الجاهلية كان سببه دعاء الأصنام، ولذلك يعبر الله عنها بـ (ما) الدالة على مالايعقل، أما نحن فندعو أولياء.

وأنت قد عرفت من القرآن سر التعبير بـ (من وما) ورأيته يعبر بهما في الموضع الواحد، و يضع إحداهما مكان الأخرى كما بينت لك من قبل ﴿وَٱتْلُ

---

(١) الأحقاف ٥.

(٢) الأحقاف ٤.

عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ .
قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ
إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا
كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ . قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ
وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١)

قال إبراهيم «هل يسمعونكم» بعد أن قالوا « نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين » لتفهم بأنه يقصد بقوله من أقيمت لهم هذه الأصنام، والا لقال لهم هل تسمعكم، ثم ذكر «أفرأيتم ماكنتم تعبدون»، وبعدها ذكر «فإنهم عدو لي إلا رب العالمين» مما يشعرك أن إبراهيم يقصد الأصنام ومن أقيمت بأسمائهم الأصنام، وإلا لقال (فإنها) عدو لي ولم يقل (فإنهم) لأن (هم) ضمير العقلاء.

وهكذا يعبر في الآيات التي تتناول قصة واحدة

---

(١) الشعراء ٦٩ ــ ٧٧.

عن معبودي المشركين بما له من الألفاظ الدالة على العقلاء، وبما له دلالة على غير ذلك لما سبق بيانه من أن المشرك يعبد بعبادة الولي الواحد آلهة متعددة، منها: آلهة الصنم أو القبر الذي أقامه باسم الولي، أو الستر فوق عبادته لإلهه الولي.

ومما سبق ذكره من بيان الأسباب التي وصفهم الله من أجلها بأنهم عباد آلهة، ومتخذو شركاء، وعباد أصنام وأوثان وتماثيل ــ تؤمن أن ذلك كله ناتج عن عبادة الولي وأن الفتنة بالصالحين هي سبب الشرك.

فإذا مارأيت اختلافاً في التعبير عما يعبده المشركون فذلك لاختلاف الاعتبارات، وإلا فالشيء المعبر عنه واحد، أما الاعتبارات التي اختلفت من أجلها التسمية لهؤلاء المعبودين من دون الله فإليك ماقاله الأستاذ عبدالرحمن الوكيل في كتابه (دعوة الحق) أيضاً:

فمعبودهم يوصف بأنه (ولي) باعتبار موالاتهم له بالدعاء وغيره، وهذا هو الوصف الأصيل، و يوصف بأنه (شريك) باعتبار أنهم أشركوه في العبادة مع الله، وبأنه (إله) باعتبار أنهم ألهوه بكل معاني التأليه، من عبادة وفزع إليه، واستغاثة به، و يوصف بأنه (وثن) أو (صنم) أو (تمثال) باعتبار المشاهد الملموس، أو باعتبار ما أقيم باسم الولي المعبود، و يوصف بأنه (طاغوت)، باعتبار أنه أضلهم وأضلوا هم به، وبأنه (الشيطان) باعتبار أنه مصدر الإغراء بعبادة هذا المعبود ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾[1] وصفها بالإناث وبالشيطان في آية واحدة.

وقال الخليل عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾[2]، و يوصف بأنه (ظن) باعتبار ماظنوه فيه من نفع وضر، وبأنه (هوى) باعتبار أنهم انقادوا

---

(١) النساء ١١٧.

(٢) مريم ٤٢.

لأهوائهم فيه ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (١) ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (٢) ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ (٣).

وتوصف معبوداتهم بأنها (أسماء) لا وجود لمسمياتها، باعتبار الحقيقة حيث سموهم أولياء، والله هو الولي، و(شفعاء) والله هو الذي يملك وحده الشفاعة ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ ﴾ (٤).

فلا يفتنك المشركون بكثرة الأوصاف فإنها لموصوف واحد هو غير معبود من دون الله، ولا

---

(١) يونس ٦٦.

(٢) النجم ٢٣.

(٣) الجاثيه ٢٣.

(٤) يوسف ٤٠.

باختلاف التعابير فالحقيقة المعبر عنها واحدة، ولايعتذر اليوم للمشركين معتذر بخرافة أن الجاهلية أشركت بعبادة الأصنام وتسميتها بالآلهة، أما هؤلاء فإنما يدعون أولياء، فقد وضح الحق من القرآن مشرقاً يبدد كل مايطغى به الباطل من ظلمات.

□ الفهـرس □

الفهرس

الموضوع — الصفحة